شيء عن أمين الريحاني

باسم عبد الحميد حمودي

هو امين فارس البجاني الريحاني، ولد في مدينة الفريكة في جبل لبنان في ٢٣ تشرين الثاني عام ١٨٧٦ وتوفي في بيروت في ١٣ ايلول ١٩٤٠ اثر سقوطه من دراجة ودفن في بلدته.

درس الريحاني الانكليزية والفرنسية الى جانب العربية والتحق عام ١٨٩٧ بمعهد الحقوق في نيويورك ثم عاد الى بيروت بعد عام نتيجة لمرضه.

في عام ١٨٩٩ رجع الريحاني إلى الولايات المتحدة فاشتغل بالتجارة والادب معا وبدأ في إصدار الكتب وكان أولها (نبذة عن الثورة الفرنسية)، كما ترجم إلى الإنكليزية مختارات من شعر الشاعر أبي العلاء المعري، ومنذ ذلك الحين كرس حياته للكتابة.

وفي سنة ١٩٠٤ عاد الريحاني إلى لبنان مروراً بمصر، فاتصل بأبرز الأدباء والزعماء السياسيين، وباحثهم في أحوال الشرق العربي الاجتماعية والسياسية والفكرية ووسائل النهوض بها، وفي لبنان تابع نشاطه الفكري والاجتماعي العاصف والمتعدد الأوجه، وأصبحت صومعته في قريته (الفريكة) ملتقى عشرات الأدباء من أمثال: محمد كرد علي وبيرو باولي والأخطل الصغير والشيخ مصطفى الغلاييني وغيرهم، كما كان ينتقل من مدينة إلى أخرى يلقي الخطب داعياً إلى الحرية وحاضر في الجامعة الأمريكية في بيروت وفي معاهد أخرى في لبنان وسوريا، وكتب ونشر في المجلات والجرائد العربية والإنكليزية.

وفي سنة ١٩١١ قفل أمين الريحاني راجعاً إلى نيويورك ليطبع كتابه (كتاب خالد)، ومنذ ذلك الحين أصبح يتنقل بين نيويورك وبلدته الفريكة. وأصبح مرموقاً في كل من أمريكا وإنكلترا وكندا، وكذلك في أوروبا والشرق الأدنى والبلاد العربية.

وفي الحرب العالمية الأولى كان الريحاني أحد أعضاء (اللجنة السورية. اللبنانية) التي مارست نشاطاً سياسياً ضد السيطرة التركية.

وفي عام ١٩٢٢ انطلق في رحلته الشهيرة، فزار الحجاز وقابل شريف مكة الحسين بن علي، ثم زار (لحج) وقابل سلطانها عبد الكريم فضل ، و(الحواشب) وفيها قابل سلطانها علي بن مانع، وصنعاء حيث التقى إمامها يحيى، ونجداً حيث اجتمع إلى سلطانها عبد العزيز بن سعود، والكويت فزار فيها شيخها أحمد الجابر آل الصباح، والبحرين وفيها اجتمع إلى شيخها أحمد بن عيسى، وأخيراً بغداد حيث قابل الملك فيصل الأول... فكان نتاج هذه الرحلات عدداً كبيراً من كتب الرحلات والتاريخ بالعربية والإنجليزية.

ومن هذه الرحلات نشر امين الريحاني ما كتبه عن بغداد في الصحف العراقية في تلك الفترة ثم طبعت ضمن كتبه عن رحلاته الى البلاد العربية والربع الخالي ومنها ما كتبه عن بغداد طيلة الاعوام ١٩٢٢-١٩٣٢ التي قام الريحاني فيها بزيارتين الى بغداد.

أمين الريحاني

أمين الريحاني يكتب عن بغداد بين ١٩٢٢-١٩٣٢

عام ١٩٢٢

سواد الناس في بغداد –وقل الاخلاط- فلا يزالون اليوم على الاجمال كما كانوا في الماضي بعيدين عن بوتقة الادغام والامتزاج.. وما غير التزاوج المختلط بينهم وان قل شيئاً جوهريا في احوالهم القومية ونزعاتهم الجنسية.. فالايرانيون والاتراك والاكراد- وان تزاوجوا ووضعوا بعضهم ببعض- لا يزالون كما كان اجدادهم منذ مئة سنة. اكرادا واتراكا وايرانيين. او انهم على الاجمال مثل اليزيديين والاشوريين والصابئيين يعيشون عقليا في الاقل بعيدين بعضهم عن بعض.. كل جماعة منفردة في شؤونها.. وما هم بسكان بغداد.. بل هم سكان الاحياء التي يقيمون فيها.. كل جماعة وكل طائفة في حيها.

وقد تتجاور الاحياء وتتلاصق بعضها ببعض ولا تتجاور القلوب ولا تتلاصق الاحساسات القومية.. فالعقلية في كل جماعة لا تزال في الغالب عقلية بدوية.. مفتوحة لاخوانهم ومقفلة دون الاخرين. والعرب في هذا مثل سائر الجماعات خصوصا العشائر التي لا تزال في ما كانت عليه فهي تحافظ على عاداتها وتقاليدها واحكامها الماضية.

اما بغداد فقد بناها اجداد هذا المزيج من الشعوب بعد نكبة سنة ١٨٣١ كما بنى من تقدمهم بعد كل نكبة من نكباتها، بنوها كما يبنى من لا يأمل حتى يومه ولا يأمل بطول الاقامة..

بنوها كل على ذوقه وحسب اقتداره وعملا بالاحوال القاهرة بدون تصميم وبدون اتساق وبدون نظام مدني يرعونه او اوامر مجلس بلدي يلتزمونها، بنوها على عجل كأنهم كلهم مسيرون بحاجة يومهم او مهددون بكارثة اخرى ووكلوا امرهم الى رب الصدق والتقادير. فنشأت من الجدران المستقيمة جدران معوجة، وعلت السطوح سطوح ودرجت الادراج من النوافذ ولاذت الاواوين بغرف النوم واشرأبت الشرفات الى الشرفات.. بل امتدت بعضها الى بعض فتوسعت البيوت وتضيقت الجادات فصارت تدعى بلغة البغداديين (دربونات) ولهذه الدربونات من الشرفات المتعانقة فوقها، سقوف ظليلة.. انها لهندسة عجيبة اوحت بها الفوضى وايدتها التقادير وما كان الاتراك ليكترثون بهذه او بتلك ما دام ابناء التقادير والفوضى يدفعون الضرائب.

الشارع الواحد الجديد

ان في بغداد شارعا واحدا طويلا عامرا يمتد من الجنوب الى الشمال من باب الشرقي الى بوابة الاعظمية في خط مستقيم.. انما كالريح فيقسم الصوب الشرقي الى قسمين كما يفعل الاسفين في الكتلة فينبسط القسم الاول شرقا في سهل رحب ويتكون القسم الثاني الى جانب دجلة في شكل هرمي قاعدته (العيواضية) ورأسه دار شركات النفط بباب الشرقي. وفي هذه المظاهر من نشوء بغداد تبدو بوضوح قبيح تلك الآفات التي ذكرت (الفوضى في البناء والصدق في التخطيط والقدر في اهواء السكان) ومنها كذلك المتناقضات المدهشات المكربات فهي قديمة وهي جديدة وهي متراصة وهي مبعثرة وهي مدنية وهي بدوية. فالشارع الطويل الذي دعاه الانكليز بالجديد ثم تميزت امانة العاصمة اسمه فدعته شارع الرشيد هذا الشارع بما فيه من مخازن حديثة ودكاكين قديمة ومقاه ودور سينما وانوار كهربائية واسلاك برقية.. وعربات وسيارات و(ربضات) ومنافذ في جانبيه الى الدربونات انه لشبيه بشارع في قرية اوروبية والبلدة والمحلات شرقا منه وان كانت بجملتها لا تتجاوز المئة سنة هي جد قديمة بما في ظاهرها ولا يخلو بعض داخلها من ضيق الجادات واعوجاجها والتهدم فيها والقتام والروائح العجيبة.. اما القسم المحاذي للنهر وفيه الاندية والمقاهي والسراي وبعض بيوت للسكن جميلة وبعض البساتين التي تزينها اشجار النبق والنخيل فما هو بشرقي ولا بغربي.. انما هو جدير بحسن الذكر والتقدير ولكن في الجهة اليمنى من دجلة اي الصوب الغربي الذي ما زال يدعى الكرخ وخصوصا ما رأيت من جمال بغداد وما اقله بعد نهر دجلة وضفتيه مثل ذاك الجمال الفني في قباب جوامعها ومثل هذا الجمال الروحي تحت القباب.. وليس الذهب في حاجة الى التذهيب. سأمسك اليراع عن الافاضة اذن وأكشف لك ناحية مجهولة من نواحي الفن في صناعة كادت تضمحل، وانت تسمع وقد تكون عالما بما يسمونه خزف الرقة وقد لا تحتاج الى من يزيدك علما بما كان للعرب في الاندلس من المهارة والذوق في صناعة الاجر الملون المسقول الذي كان يدعى الزلاج (زلج- زلق) انما المدهش ان يبقى في بغداد لهذه الصناعة اثر يذكر.

تعال ندخل المعمل في جامع الحيدرخانة وذلك الجمال في القباب والمآذن لما هو فيه هنا المدهشات.. وخصوصا لمن كان منذ ساعة في سوق النحاسين واول المدهشات النظافة التي لا تتوقعها في من يلعب بالتراب والاصباغ.. النظافة ثم الترتيب ثم الاتقان ورب المكان هو رب هذه الفضائل كلها.. التي ورثها كما ورث الصناعة عن ابيه عن جده انما لا يذكر الى كم جيل من اله تعود وما يدريك قد يكون الاستاذ من سلالة احد ارباب هذه الصناعة في الرقة او في الاندلس.. هو شيخ في العقد السادس ومعه ابنه يتعلم ويساعده ليحسن استخدام الارث الثمين وانه على سنه يعمل مجدا فيشرف على كل فرع من فروع هذه الصناعة التي تبدأ بخلط الرمل والتراب وتنتهي بالاشتواء وهو نفسه يصنع الاصباغ وجلها من الازرق اللازوردي والاصفر العصفريري وليس فيها شيء مجلوب.. ليس فيها اصباغ كيمياوية غير التي يصنعها التنك والزجاج اذا صح ان يدعى هذا المزيج كيمياويا.. اذن لنا بالدخول الى غرفة الاصباغ وفيها ركام من صناديق التنك والقناني المكسرة والرصاص وفيها آلة كالجاروش من حجر واخرى من حديد فبعد ان تجرش المواد وتطحن تذاب بالماء وتوضع في مواعين فوق النار لتغلي ثم تنقل الى الشمس لتجف فتفتت بعد ذلك وتمزج بالزيت فتغدو اصباغا ومن مدهشات هذا المصنع ان رجلا واحدا يقوم بالاعمال الاساسية كلها.. فهو الطيان وهو الصباغ وهو الرسام الفنان لا بأس برسومه التي تشمل أشكالاً هندسية واخرى نباتية وهاك السلم في عمله فبعد ان تضع الآجر وتشوى يصبغها ويرسم عليها الرسوم ثم يعيدها الى النار فيعمل اللهب بالالوان عمل الشمس بالغيوم المذهبة والمفضضة فيذهب اللون الواحد فتبدو في جوانبه ألوان منه فرعية ناعسة ناعمة وبكلمة اخرى تنشبح الالوان فترق فتظن وانت تعجب بها انها دهنت بريشة فنان ماهر.. اما لون الرسوم في بناء القباب والمآذن بهذا الحجر فهو غالبا مركب من الاخضر او الازرق على صفحة من الاصفر والاخضر الذهبي او ان الخطوط والاهلة من هذا الاصفر تتخلل احد اللونين الاوليين.

بقي ان اقول ان هذه الآثار الفنية في قباب الجوامع ومآذنها هي على ما يظهر ثابتة طويلة الاجل فلا الشمس ولا العوامل الطبيعية الاخرى تضر بالوانها ولا عجب فقد دخلت النار مرتين اذا ما حان الزمن على تلك القباب في المستقبل فهدمها فأن الاثريين يجمعون الاجر في الردم وتحت التراب كما يجدونه اليوم في حضائر سلوقية واور فيغسلونه فتبدو الالوان فيه وقد اكسبها الزمان مسحة عجيبة.

الصناعات

ومن الصناعات التي اشتهر بها العرب في الماضي ولا يزال منها امثلة في بغداد.. صناعة الحفر في الخشب وهي عربية بحت وصناعة الزجاج المركب في اطارات مذهبة وفي بغداد اليوم بيت قديم يقال انه سلم من النكبة الاخيرة الى انه تجاوز المئة سنة فيه من الصناعتين اثر حسن سليم وفيه ايضا ما يعيد الى الذهن في هندسته وفي زينته صورا وذكريات لتلك الدور التي خلدت في كتاب الف ليلة وليلة.. على ان مدخل البيت او صحنه الصغير يزيل ما في النفس بهجة الشوق والخيال فقد صدمنا لما دخلنا بتجارة من التجارات الحديثة يتمثل دور منها في حلقة من النساء جالسات على الارض حول ركام من جوز العفص وهذا الجوز يجنى من الغابات في جبال الموصل فتنقيه النسوة العاملات ويهيئنه للشحن الى لندن وبرلين لتصنع هناك منه الاصباغ ولكنا صعدنا الى الطابق الثاني مسرعين فاذا نحن في غير بغداد اليوم.. اجل قد انتقلنا انتقالا عجيبا الى دار من دور بغداد القديمة التي نجت من النكبات كلها، وما هذه الردهة التي يعلو جدرانها الخشب المحفور المدهون اشكالا نباتية وهندسية المزين سقفها بالاطارات الذهبية المرصعة بالمرايا.. القائم في نوافذها الزجاج الملون تقيه الشويات الدقيقة الصنع.. ما هذه بردهة تركية او سلجوقية او بويهية وما هذا الايوان وقد تكاثفت فيه وتداعت لقدمها.

الزيارة الثانية ١٩٣٢

اما الشارع الجديد- شارع الرشيد- فقد زال منه الغبار ودفن تحت صفحة من الزفت وهذا من حسناته الحديثة- لقد شط القلم في حسناته- وليس هناك ما يميز الجميع ذلك ان البنايات الجديدة واكثرها في جهة باب الشرقي بنيت على الطريقة القديمة التي لا تعرف النظم الحديثة فهي تحترم الرصيف مرة وتضم عرضه مرات.. ان هذا الشارع لا يزال كالمنشار في نتوئه وفتوقه وفي عماره وخروقه.. اما المقاهي فقد ازدادت عدد تلك التي لا يتقزز المرء منه.. وقد ازدادت كذلك الضوضاء في شارع الرشيد فقد وصلت السينما الناطقة الى بغداد، وشرعت الفونوغرافيا والمكبرات ترسل في الشارع الوانا من مكبرات الالحان والصيحات: تعالوا اسمعوا يا اهل بغداد صياح الامريكيين في ساحات كرة القدم واللكام.. تعالوا اسمعوا المدينة الغربية تصيح ليت شعري باصوات البغداديين ما تكون عندما تغزو بغداد كرة القدم والملاكمة.. ويجن اهل بغداد جنون اولئك (البرابرة) عبر اسماء باللكام ولعب الاقدام: هي المدينة الغربية ولا مهرب منها.

وهذه الباصات منها وحتى تزيد بازدحام شارع الرشيد ولضوضائه وروائحه- اما السيارات ذات العداد فقلما تجدها واما الخصوصية فهي في بغداد وفي كل العراق لا تتجاوز الالفي سيارة واكثرها قديمة او انها لا تلبث ان تصير كذلك لقلة الاعتناء بها.. وقلما يفطن السائق او صاحب السيارة ان غسلها كل يوم هو الزم ما يلزمها في بلاد مثل العراق غبارها كثير.. ان العربات من هذا القبيل خير منها وقد تقول اذ تراها انها من عهد سحيق ولكنك بعد ان تركب فيها اللهم اذا كنت ممن لا يعدون الدقائق والساعات –ترضى عنها وتقول- خسئت بها سيارة فالمجلس فيها احسن مما يبدو لناظريك لانه نظيف وثير والخيل تجري جري الاصايل وان لم تكن منها.

الا ان حال الخيل يسوء عندما يرش الشارع بالماء.. فيجر الجري البلاء عليها او بالجري يجرها اليه.. ذلك ان هواء بغداد يحمل دائما من دقيق الغبار ما يفرشه في الشارع فيستحيل اذ يمسه الماء وحلا رقيقا زلجا.. وعندما تكون الخيل جارية جريها المعتاد ربعة وقلما تراها ماشية، فترتفع فجأة امامها يد الشرطي لتوقفها فيقصر السائق العنان فتكاد تدخل في العربة ولولا العريض تصير تحت دواليبها.. ولفت نظر رفيقي السيد اليه فابتسم من ما شاطرني في تلك الحال شعور الرفق بالحيوان.. وما كان من رثائي لحالة الخيل.. ليس الحق على الاسفلت ولا على الغبار والماء ولا على الشرطي او السائق.

الفيصلية والعيواضية

وفي شمال الرصافة الى جانب النهر ناحية اخرى جديدة هي الفيصلية تزينها روضة عمومية وهناك كذلك العيواضية التي ظهر من عمارها وتخطيطها حتى اليوم ما بني بما سيكون من جمالها المدني.. ان في هذه النواحي الدليل على ان امانة العاصمة عازمة على اثبات وجودها وتقرير اسباب الصحة والراحة والجمال في المدينة.

ابو نواس

بقي ان اشير الى مظهر من التجديد اوحت به الوطنية العراقية فقد بدأت امانة العاصمة تطلق اسماء عربية على الاسواق والجادات وان وطنيتها في هذا الامر لتستوفي ربة الشهرة في جميع منازلها الادبية والدينية والسياسية..

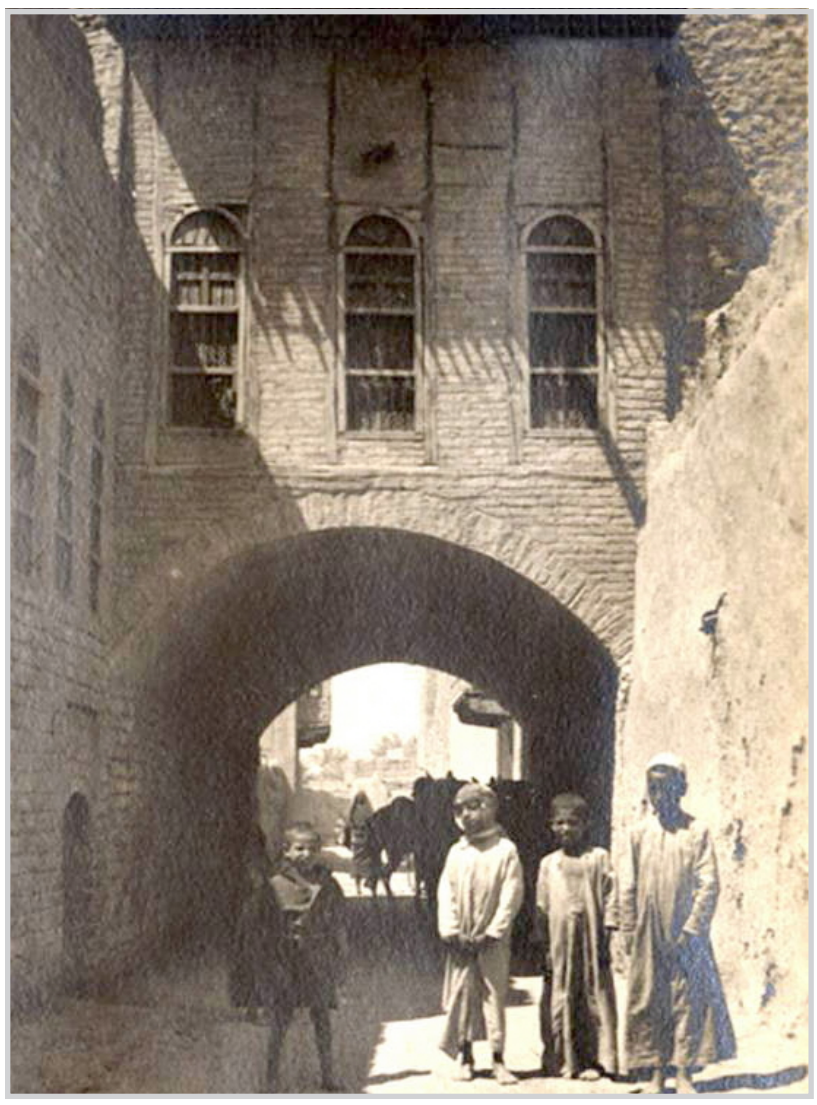

اجل ان اختيار امانة العاصمة يشف عن ذوق شامل ودقيق وعن حكمة بليغة مثل تلك الجادة التي انشئت الى جانب النهر في الباب الشرقي الى الكرادة التي ستصبح المتنزه الاول في بغداد فقد اطلق عليها اسم ابي نواس.. وانك لتجد خارج السور مثالا اخر منها.. هناك شمالي البلاط الملكي الى جانب طريق الاعظمية في بستان كبير من النخيل شيدت كلية آل البيت منذ عشر سنوات لتدريس العلوم الاسلامية ففتحت ابوابها للطلاب نحو سنين ثم اقفلت وهي اليوم دار البرلمان العراقي ومن العلوم الاسلامية علم الكلام (الذي يدعى عند المسيحيين اللاهوت) فمن علم الكلام الديني الى علم الكلام المدني، لا يزال موضوعنا الكلام الا ان الانتقال من كلية آل البيت الى البرلمان يعد جديدا وقد يكون وقد لا يكون مفيدا، وكانت في حينه بلدية الاعظمية مستقلة عن بلدية بغداد ولكن لكون البرلمان انتقل الى الاعظمية ويجب ان يلقى اعضاء البرلمان اجتماعاتهم في العاصمة لاجله ربطت بلدية الاعظمية بامانة العاصمة واصبحت الاعظمية جزءاً من العاصمة بغداد، وقد حولت البناية مرة اخرى فاصبحت دار المعلمين الابتدائية بعدها.

تعال اريك من الجديد ما لا يكن في جده- تعال اريك آية الجمال في الجادات من بغداد الى الهندي- مركز الطيران السابق (العراقي الان) مسافة تنيف على خمسة اميال طريقها مفروشة بالاسلفت ومزدانة الى الجانبين بصف متواصل من شجر الدفلى، ان هذه الطريق في الربيع يوم يكون الدفلى الزاهر في مجده لاجمل ما ينبغي المرء من نزهة في ضواحي بغداد.. وان شئت اطالة السرور فالعربة خير من السيارة.

شارع المستنصر

الى جانب شارع الرشيد- بينه وبين دجلة شارع هادئ وادع جدير بالطواف والاستكشافات هو شارع المستنصر الذي يرتبط بشارع المأمون بسوق كبيرة طويلة ذلك الشارع القصير العريض الذي يرضي بقسمته من المدينة فيصل شارع الرشيد بالجسر الثاني ويفتح قلبه للسوق المسقوف شمالا منه الذي يدعى سوق السراي واذا ما وقفت في هذا الشارع القصير فيئنون ويتأوهون معها.. مسكينات تلك النجوم، كم ينقصها من العلم العريض ترى نفسك في ظل السلطات المالية الى الحكومة والتجارة.. امامك سوق السراي ووراءك الكمرك وبيوت التجارة والشركات والبنوك وهناك الى يمينك معهد للفن صغير هو المتحف العراقي وفي السوق المسقوف سوق السراي وجه للادب، خضراء صفراء هي الدكاكين التي تبيع الكتب والمجلات.

هو ذا مركز اعصاب المدينة وانك لتجد هنا فوق ما ذكرت بين الجسرين اشتاتا من روح بغداد الاجتماعية والدينية فان شارع المستنصر يبدأ بين المقاهي وينتهي بالمساجد وبين هذه وتلك وحولها طواحين التجارة والدعارة.. اجل ان بين الجسرين محط رحال قافلة الروح البغدادية ان بين الجسرين بيت قصيد المدينة:

اظل ارعه نجومل ليل بسماي
ولي ناظر يهلل دمع بسماي

وهذه التي ترعى نجوم الليل وتلهج باسم الحبيب وتئن عليه هي احدى مغنيات بغداد الشهيرات واكثرهن يهوديات، تجلس كل ليلة على عرشها في المقهى في الطابق الاعلى على زاوية شارع المستنصر بين الرصافة والجسر وتصيح باعلى صوتها صيحات منكرات فظيعات.. (اظل ارعه نجومل ليل بسماي) فتسمعها نجوم الليل في السماء فتئن منها ويسمعها اهل بغداد لتحسن تقدير هذا الغناء البغدادي القديم.. قلت ذلك مرة وانا اقف على الجسر بينما كانت اشعة القمر ترقص على الامواج سمعت صوتا يوبخني قائلا وهل تظننا نرقص طربا؟ افلا يرقص الطير مذبوحا من الالم، ما التهكم منك؟ ولماذا انت ماض فيه؟ او ليس هذا الغناء صياحا بصياح؟ بل هو صياح جراح ونواح فضاح: تعال ارقص معنا على هذه الامواج.